الكتاب لإنقاذ ما بقي من طفولة؟

فاطمة شرف الدين

من أصعب الأمور التي نواجهها اليوم في لبنان كمربّين، كأمّهات وآباء، مواجهةُ أطفالنا بالواقع الفظيع الذي عاشوه في الحرب الإسرائيلية الأخيرة على وطننا. عادةً، القناة الأسهل التي يجب اتخاذُها لنقلِ أو تبسيطِ تجربةٍ معيّنةٍ يمرّ بها الطفلُ هي الكتاب؛ إذ من خلال أدب الأطفال تُمْكن معالجةُ أيِّ موضوع يَشْغل فكرَ الطفل، وأيِّ وضعٍ صعبٍ يعيشه. فكما نقرأ لأطفالنا عن زيارة الطبيب أو عن أولِ يوم في المدرسة، عن الديك الخجول أو فرخِ البطّ الجبان، فإنّ علينا أن نقرأ لهم عن الحرب.

إنّ أطفالَ لبنان اليوم في حاجة جديّة إلى الكتاب الذي يَعْكس لهم بعضَ ما جرى. للأسف، أغلبُ الأطفال الأبرياء رأوا أبشعَ صورٍ متلفزة لما قام به العدوُّ المتوحّش. وبالطبع فإنّ مشاهدة الموت والخراب على التلفاز أو على الصفحات الأولى من الصحف اليومية شيءٌ مرعبٌ للطفل ـ ناهيك عن رؤية هذا الطفل لما حَصَلَ بأمّ العين. فكيف نواجه كلَّ هذا الجيل الصغير؟

تعدّدت المشاكلُ النفسيةُ، والأجوبةُ قليلة.

أدب الأطفال هو واحدٌ من الأجوبة، ولكنْ أين هو؟

أين كتبُ الأطفال العربية التي تعالج، بجدّيةٍ، مواضيعَ كموضوع الحربِ أو الموتِ أو فقدانِ أغلى ما لدى الطفل؟

غنيٌّ عن القول إنّ أدب الأطفال في العالم الغربي اجتاز مراحلَ متقدّمة جداً على أدبنا في العالم العربي، وذلك لأسباب عديدة لا مجالَ لذكرها هنا، وفيه يمكن أن نقرأ عن عددٍ لا يُحصى من موضوعاتٍ تتعلّق بتجارب صعبة ومآسٍ يتعرّض لها الأطفال وأمّا عندنا، في غالبية كتب الأطفال، فمازلنا نعاني عدمَ الجرأة على كسر محرّماتٍ وُضِعتْ، أو وضعناها نحن، نُصْبَ أعيننا، ككتّاب أو ناشرين، لهذا النوع من الأدب، واتجهنا إلى مطابقةِ ما نعتقده الأكثرَ «شعبيةً» عند الأهالي أو المربّين الذين نعتمد عليهم. وهنا خطأ أيضًا، في اختيار وشراء الكتاب للأطفال.

الآن، جاء الامتحانُ الأصعب، والوقتُ المناسب، لكسر هذه المحرّمات، وللكتابة **للأطفال** لا للكبار على الكاتب أن يتنبّه، في هذه المرحلة الصعبة التي يمرّ بها الطفلُ اللبناني (كنظيره الفلسطيني أو العراقي)، إلى حاجات هذا الطفل وكيفية معالجتها. وإنّها لمهمّةٌ حسّاسة. فنحن، ككتّاب، لا نريد عرضَ ما جرى للطفل بنسخةٍ مبسّطة، وعلينا ـ قَطْعًا ـ ألاّ نعالجَ أمورًا عدةً في كتابٍ واحد (وهنا أتكلّم عن الطفولة المبكّرة ـ ٦ سنوات وما دون). بل على الكاتب أن يأخذ منحًى واحدًا من الحرب، ويحوكَ قصةً مبسّطةً حوله. ومن الضروري جداً أن يعي الكاتبُ أنّ هدف الكتاب ليس الوعظَ، ولا التعليمَ، ولا سردَ ما جرى بطريقةٍ مسطّحة، بل تأليفُ حبكةٍ يستطيع الطفلُ، بطريقةٍ ضمنيةٍ وغيرِ مباشرة، أن يقارب بين أحداثها وشخصياتها من جهة، وبين التجربة المؤلمة التي يحاول استيعابَها من جهة ثانية.

والحقّ أنّ مهمة الكاتب صعبةٌ هنا. فمن ناحية يجب التأنّي في اختيار موضوع الكتاب. ومن ناحية أخرى، يجب التأنّي في اختيار المفردات التي يريد مواجهةَ الطفل بها: ففي الأحوال العادية لا يَسْمع الطفلُ مفرداتِ الحرب في محيطه، أما في يوميات الحرب فقد صار يسمع عباراتٍ وكلماتٍ مثل «القصف الجوي» و«دمار» و«مجزرة»... إذن، على الكاتب أن يعودَ قليلاً بالزمنِ إلى الوراء ويستعيدَ مفرداتٍ من طفولةِ «ما قبل الحرب» ليخاطب الطفلَ بها

على أنّ مسؤوليةَ إنتاج كتب للأطفال عن الحرب لا تقع على الكاتب فقط، بل يتحمّلُها الناشرُ أيضًا. فعلى الناشرين المتخصصّين بأدب الأطفال التنبّهُ إلى اختيار الكتب عند النشر إذ من الممكن أن يَكْثر الكتّاب، ولكنّ مسؤولية تقييم الكتابِ وقرار نشره وتوزيعه تقع في نهاية الأمر على الناشر

إذا أردنا أن ننتجَ كتبًا قيّمةً تُوصلنا إلى بعض أهدافنا في معالجة موضوع الحرب ومخلّفاتها في نفوس أطفالنا، فإنّ علينا جميعًا ـ كتّابًا وناشرين ومربّين ـ أن نتعامل مع الموضوع بجديّة ومسؤولية. وهذا أقلّ ما يمكن أن نقدّمه اليومَ لأطفالنا الذين أضاعوا، بسبب الحرب، بعضًا من طفولتهم.

دبي ـ بلجيكا

فاطمة شرف الدين

كاتبة أدب أطفال من لبنان